B18-26

انفجار الاشتراكيّة الدّستوريّة

ما جرى في تونس مؤخّرا يستحق التّوقف و التّحليل ... فالتّحقيقات و التّحليلات الصّحفيّة السّريعة و السطحيّة تركّزت على الخلافات الشخصيّة في الحكم التونسي بعد ابعاد أحمد بن صالح و انتصار الباهي الأدغم الذي أصبح الآن "الخليفة المنتظر" لبورقيبة.

الا أنّ حقيقة ما حدث أبعد من ذلك كثيرا ، اذ أنّه يرتبط بالتّجربة البورقيبيّة كلّها ، والأزمات التي تتحكّم بها ، والافلاس والفشل الذي وصلت اليه على الصّعيد الاقتصادي.. لذلك فانّ الصّراع بين الباهي الأدغم و أحمد بن صالح دار حول تطبيق السّياسة الاقتصادية ، و مصير التّعاضديّات ، في الملكيّة الخاصة والملكيّة العامة.

فلقد كان أحمد بن صالح "المسؤول الأوّل" عن تطبيق هذه السّياسات الاقتصاديّة في النّظام البورقيبي ، و سقوطه هو اعلان فشلها النّهائي وعجز "الاصلاحيّة البيروقراطيّة" التي مثّلها أحمد بن صالح عن تطوير الاقتصاد و بالتّالي الرّجوع الى "اللّيبراليّة الاقتصاديّة" ، باعتصار البورجوازيّة التونسيّة الرّجعيّة التي يمثّلها الباهي الأدغم في حسم الصّراع في داخل النّظام البورقيبي لصالحها ..

مؤتمر بنزرت..

لقد حاول النّظام البورقيبي منذ ٥ سنوات أن يوفّق بين النّظام الرّأسمالي التّونسي المتخلّف وبين اصلاحات ذات طابع "اشتراكي" ، فكانت "الاشتراكيّة الدّستوريّة" التي أقرّها مؤتمر "بنزرت" عام ١٩٦٤ ، وعلى أثر ذلك تغيّر اسم الحزب الدّستوري الى اسم جديد ، هو "الحزب الاشتراكي الدّستوري".

وكانت هذه "الاشتراكيّة الدّستوريّة" تعبير عن ايديولوجيّة اصلاحيّة لفئة من التّكنوقراطيّين الشّباب ، ذات مفاهيم غامضة و سلحيّة ترى في "الاشتراكيّة" مجرّد اصلاحات فوقيّة تمسّ بعض جوانب النّظام الرّأسمالي المتخلّف ، يمكن

تطبيقها دون المس بالسلطة السياسية للبورجوازية الكبيرة ، ومن فوق الصراع الطبقي، وبدون أية قاعدة جماهيرية .

ووجد بورقيبة شخصيا في " الاشتراكية الدستورية " انقاذا لنظامه أمام التطورات الثورية الخارجية والداخلية :

× من الخارج ، أخطار الثورة الجزائرية، وما يمكن أن تفرزه من تطورات ذات تأثير على الجماهير التونسية .

× من الداخل ، يقابلها عجز متزايد للبورجوازية الكبيرة (التجارية والعقارية) عن تطوير الاقتصاد ، وزيادة الانتاج .

لذلك تبنى بورقيبة بحماس " اصلاحية الشباب التكنوقراطي " ، ودعمهم في السلطة بعد أن سلمهم مراكز "المسؤولية الأولى " في السياسة الاقتصادية بشكل خاص ، اذ وجد في "اصلاحاتهم " استمرارا تاريخيا للبورقيبية التي جاءت بالاستقلال ، أما بعد الاستقلال فقد أصبحت بحاجة الى "ايديولوجية" تمدها بالاستمرار ، وتسلحها بالمبرر والحاجة التاريخية ، وتعطيها حق التكلم باسم "مذهب اشتراكي جديد وخاص "يتميز عن الاشتراكيات الأخرى سواء التي تعم المنطقة العربية ، أو التي يتحدث بها "الجيل الجديد " من المثقفين المتأثرين بالماركسية . ان "الاشتراكية الدستورية" هي الخلق العبقري للبورقيبية ، وهي التي يمكن أن تنقذ البورجوازية الكبيرة من مأزقها وأزمتها ، وهي التي يمكن أن تمنع تحرك العمال والفلاحين ، وهي التي يمكن أن تصالح الطبقات جميعا ،فتوفق بينها ، وتمنع الصراع الطبقي ..

وهكذا تصبح الدولة البورقيبية حكما بين الطبقات ، تنظر في خلافاتها وتناقضاتها ، كالمحاكم العادلة ، وتقرر على ضوء الاشتراكية الدستورية ، الحكم العادل الذي تستحقه كل طبقة !.

وعلى أساس هذه الأوهام والأحلام للبورجوازية الصغيرة ، سارت التجربة البورقيبية الجديدة في طريق التطبيق .. وتوكل الجناح البيروقراطي الشاب بأن يتسلم المسؤولية الاقتصادية كلها ، ويحقق النجاح المنتظر في بناء اقتصاد متطور متقدم وحديث يقضي على الفقر والتخلف ، معتمدا بذلك على ثقة "المجاهد الأكبر" ..

جناحان في السلطة

فماذا حدث ، و كيف انفجرت الاشتراكيّة الدّستوريّة ؟؟

استطاع بورقيبة بعد مؤتمر بنزرت الذى أعلن الاشتراكيّة الدّستوريّة أن يخلق توازنا في السّلطة السّياسيّة بين جناحين على يمينه ويساره :

١ ـ جناح اليمين الذى يمثّله الباهى الأدغم خاصة مدعوما من البورجوازيّة التّجاريّة الكبيرة التى تتكوّن فى معظمها من الوسطاء ـ كومبرادور ـ ذات الارتباط الوثيق بالمصالح الامبرياليّة وخاصة الامريكيّة .

٢ ـ جناح "الشّباب" ، يمثّله أحمد بن صالح ، مدعوما من البيروقراطيّة الاداريّة و السّياسيّة فى الدولة والحزب . فقد تكوّنت بعد الاستقلال طبقة بيروقراطيّة صاعدة طفيلة تطمح للعيش برفاهيّة : فيلات ، ترف ، استهلاك مرتفع ..

كان الحزب الدّستورى الجديد الذى يتزعّمه بورقيبة حزبا بورجوازيّا صغيرا قاد الحركة الوطنيّة لنيل الاستقلال . الا أنّه بعد معركة الاستقلال ، التى انتهت بمساومة ، سرعان ما تطلّع ـ بعد التّصفيات و الصّراعات المختلفة التى أعقبت الاستقلال ـ الى الانحياز للغرب من ناحية السّياسة الخارجيّة ، والى طريق النّظام الرّأسمالى فى السّياسة الدّاخليّة .

وفى السّنوات الأولى بعد الاستقلال نمت طبقة جديدة من " الأثرياء الجدد " فى وسط البورجوازيّة التّونسيّة التى كانت تقليديّا بورجوازيّة تجاريّة وعقاريّة مرتبطة بالرّأسمال الأجنبى ، لاعبة دور الوسيط ـ الكومبرادور ـ بينه و بين السّوق الدّاخليّة .

عندما أعلن بورقيبه تبنّيه للاشتراكيّة الدّستوريّة فى عام ١٩٦٤ ـ مستجيبا بذلك الى الضّغوط المختلفة ـ الدّاخليّة والخارجيّة التى أشرنا اليها فى البداية ظلّ متمسّكا بالنّظام الرّأسمالى والارتباط بالمصالح الامبرياليّة . فلم يمس بمصالح البورجوازيّة التّونسيّة التّقليديّة من ناحية ، ولم يمس بالمصالح الاستعماريّة من ناحية أخرى ..

أمّا البورجوازيّة الرّجعيّة الكبيرة فلم توافق على هذا "التّطوّر" ، لكنّها لم تمانع أو تعارض بقوّة ما دامت مصالحها الأساسيّة لم تمس ـ منتظرة الفشل للتّجربة ، واضعة العراقيل والعقبات أمامها كي يأتي هذا الفشل سريعا .

سقوط التّجربة ..

وبعد خمس سنوات فقط ، سقطت التّجربة الاصلاحيّة ، وضاعت أوهام "الاشتراكيّة الدّستوريّة" وأحلامها وآمالها .. وانفجرت نصفين ، وصرخ بورقيبة ـ وهو مريض بعد عدّة نوبات قلبيّة عاناها في السّنوات الأخيرة ـ في وجه "أولاده الشّباب" الذين دعّمهم وأعطاهم ثقته ، ففشلوا ، وارتكبوا الأخطاء الكبيرة ، صرخ بورقيبة في وجوههم متخلّيا عنهم :

ـ الدّستوريّة قبل الاشتراكيّة !

ـ لم أكن أعرف ما يجري في تونس مؤخّرا ، وكان الوزراء جبناء فلم يعلموني بشيء !

ـ أحمد بن صالح تصرّف كدكتاتور صغير .

ـ يجب التّخلّص من براثن أسياد التّعاضديّات (التّعاونيّات التي أنشأتها الاصلاحات وأشرف عليها التّكنوقراطيّون الشّباب) !

وأقيل أحمد بن صالح ، وأبعد عن جميع مناصبه ومسؤوليّاته ، وعاد بورقيبه الى حرسه القديم ، فسلّم الباهي الأدغم الأمانة العامة للحزب الاشتراكي الدّستوري ، وعيّنه كاتب الدّولة للرّئاسة ، وجرت انتخابات جديدة للرّئاسة والنّيابة ، وعاد بورقيبة بالطّبع رئيسا للجمهوريّة ، وعاد نوّاب الحزب المرشّحين للنّيابة للبرلمان ، بعد أن أقصى جناح "الشّباب" .. أمّا البورجوازيّة التّجاريّة الكبيرة فقد احتفلت بالنّصر ، لقد دفع الشّباب ثمن تهوّره وطيشه .

انّ "الاشتراكيّة الدّستوريّة" ـ كغيرها من الاشتراكيّات البورجوازيّة الصّغيرة التي تختلف أشكالها وتطبيقاتها ، ودرجة معاداتها وارتباطها بالامبرياليّة ، ولكن تلتقي جميعا عند نقطة واحدة : أوهامها بتطبيق اصلاحات حكوميّة ـ بيروقراطيّة بدون صراع طبقي ـ ، انّ "الاشتراكيّة الدّستوريّة" كان محكوما عليها بالفشل والانفجار .

ـ وهذا خلاف التجارب "الاشتراكيّة" للبورجوازيّة الصّغيرة في بلدان عربيّة أخرى ، التي ضربت مصالح ثالوث الاقطاع ـ الاستعمار ـ البورجوازيّة الكبيرة ـــ ـــ بالاصلاح الزّراعي ، والتّأميمات .

حدود الاصلاحات

ومن هنا كانت حدود الاصلاحات الاشتراكيّة الدّستوريّة ، وبالتّالي مكمن فشلها السّريع ، و"مأساة" جيل الشّباب الكنوقراطي الذي سقط سريعاً عن الحكم مكروها من كلّ الطّبقات .

فهذه الحدود الاشتراكيّة الدّستوريّة تفرض اصلاحات بيروقراطيّة في القطاعات المختلفة من الاقتصاد ، أي في قطاعات جماهير البورجوازيّة الصّغيرة نفسها ، كالفلاحين أصحاب الملكيّة الصّغيرة ، التّجار الصّغار ، الحرفيون ، الخ ...

وهكذا كان على البيروقراطيّة البورجوازيّة الصّغيرة أن تقيم تجربة على حساب الجماهير والطّبقة التي انبثقت منها ... ولأنّها غير قادرة على المسّ بمصالح الملّاك العقاريّين الكبار و البورجوازيّة الكبيرة ، فقد أممت الملكيّات الصّغيرة فقط !!

وبدأت التّجربة الاشتراكيّة الدّستوريّة في الرّيف ، فيما سمّي بالتّعاضديّات والتّعاونيّات ... وأصابت التّجربة الفلاحيّة الملّاك الصّغار اذ فرضت عليهم بالقوّة والارهاب والقسر الجمع في المزارع الجماعيّة التّعاونيّة والتّحوّل من ملّاك صغار الى شبه أجراء للدّولة

كارثة اقتصاديّة

وتحوّلت "التّعاونيّات" الى كارثة اقتصاديّة للأسباب التّالية :

١ ـ ارتفاع النّفقات الاداريّة للبيروقراطيّين المشرفين على التّعاونيّات .

٢ ـ تضخّم الاستثمارات مع قلّة العائد .

٣ ـ محاولة المكننة الكاظبة التّعاونيّات بدون الارتباط بأيّ سياسة تصنيع في البلاد ، وكانت الآلات الزّراعيّة تستورد من الولايات المتّحدة الأمريكيّة باشراف مكاتبها الموجودة بتونس ، واستشار الخبراء الأمريكان الذين

يشرفون على "التجربة الاشتراكية" ، ممّا أدّى الى زيادة العجز في الميزان التجاري نتيجة للاسراف في استيراد هذه الآلات ، وأدّى الى تفاقم مشكلة سوء استخدام العمالة المتاحة ، وبالتالي تفاقم مشكلة البطالة .

٤ـ تحويل الفلاحين ، أصحاب الملكيّة الصّغيرة ، الى شبه أجراء للدّولة ، اذ أصبحوا ينالون أجورا يوميّة في نظام التّعاونيّة لا يتيح لهم دخلا أرفع من العمّال الزّراعيّين ، ممّا خفّض انتاجهم ...

٥ـ سيطرة القطاع الخاص على التّجارة وتسويق المنتجات ، والتّسليف .

كذلك الأمر في القطاع التّجاري ، اذ يقيت البورجوازيّة الكبيرة على حالها فلم تمس مصالحها ، واقتصر التّنظيم "الاجباري والقسري" على التّجار الصّغار وحدهم ممّا أدّى الى افقارهم باستمرار ... وبالمقابل فقد ازداد تحالف البورجوازيّين الكبار مع الرّأسمال الأجنبي ، وخاصة الأمريكي والألماني الغربي ، وازدادت ديون تونس للولايات المتّحدة نتيجة القروض الكثيرة التي أغدقتها عليها .

وتراكمت النّتائج الاقتصاديّة التي ولّدتها هذه الأسباب المختلفة ، فوق بعضها البعض ، حتّى وجد النّظام البورقيبي نفسه أمام كارثة اقتصاديّة .

أمام ذلك بدأت البورجوازيّة التّونسيّة التّقليديّة تحاصر "التّجربة الاشتراكيّة" لتخنقها نهائيّا ، بعد أن ثارت ضدّها حتّى الجماهير البورجوازيّة الصّغيرة التي كانت على حسابها ، وسببا في افقارها . وبدأ "الخبراء الأمريكيّون" الذين كانوا في البداية يموّلون التّجربة بالقروض الأمريكيّة ، يتخلّون عنها ، ويعودون الى رجالهم القدامى من ممثّلي البورجوازيّة التّقليديّة .. أمّا بورقيبة فقد اكتشف أخيرا الأخطاء الكبيرة التي ارتكبها الشّباب الذين أعطاهم ثقته ودعمه ، فتخلّى عنهم ، وعاد الى حرسه القديم .

الكوب الذي تكسّر

كان بورقيبة يصف أحمد بن صالح دائما بأنّه "كوب كريستال ، اذا تركته يتكسّر الف قطعة" !!

وبالفعل ترك بورقيبة "الكوب" ـ أحمد بن صالح ـ فتكسّر بعد أن أحاطت به العزلة من كلّ جانب ، فلم يجد أيّ نصير !

لقد تجمّعت ضدّه كلّ الطّبقات، فالبورجوازيّة التّقليديّة كانت تتربّص به وبتجربته منذ البداية ، والبورجوازيّة الصّغيرة نالت من تجربته الافقار والارهاب والدّكتاتوريّة والطّبقة العاملة لم تجد الاّ المزيد من الفقر والاستغلال والبطالة .

أمّا في الحزب الدّستوري فلم يكن له أيّ صلات حقيقيّة، اذ أنّ تحالفاته التّكتيكيّة بين رجالات الحزب اعتمادا على صراعاتهم الشّخصيّة و المنافسة القائمة فيما بينهم ، لم تكن ترتكز على أيّة قواعد صلبة تحميه أيّام المحنة .

وهكذا وجد نفسه معزولا من كلّ جانب ،فسقط صريع الأوهام والأحلام التي بناها على اشتراكيّة تحلّق فوق الطّبقات تحقّق اصلاحات وتبقى على النّظام الرّأسمالي ..اشتراكيّة تحافظ على السّلطة السّياسيّة والاقتصاديّة للبورجوازيّة .. اشتراكيّة معزولة عن الجماهير ، تطبّق باشراف الخبراء الأمريكيّين الرّأسماليّين الذين يستغلّون شعوب العالم المتخلّفة ..

اشتراكيّة من هذا النّوع لا بدّ في النّهاية من أن تنتحر ، لأنّها بالأصل أوهام لا اشتراكيّة حقيقيّة ..

من الذي انتصر في معركة انفجار "الاشتراكيّة الدّستوريّة" ؟؟

البورجوازيّة الرّجعيّة "المركنتليّة" ، الأغنياء الجدد المرتبطين بالمصالح الامبرياليّة .. وعاد ممثّلهم البلهي الأدغم ـ تدعمه زوجة بورقيبة وسيلة بن عمّار التي اغتنت أسرتها ، أصبحت جزءا من البورجوازيّة التّجاريّة الجديدة بالوكالات المختلفة التي تملكها ـ عاد الباهي الأدغم الى احتلال مركز "الرّجل الثّاني" ، الخليفة المنتظر لبورقيبة المريض .

وخرج الباهي الأدغم في الانتخابات الأخيرة ليقبل باسم الحزب وباسم "المجاهد الأكبر" مصحّحا انحراف بن صالح ، معرّفا الاشتراكيّة الدّستوريّة من جديد ، فهي تحترم الملكيّة الفرديّة وتعتبرها مقدّسة ،و يحميها القانون .

ـ والملكيّة الفرديّة لها وظيفة مزدوجة احداهما اجتماعيّة والأخرى اقتصاديّة .

ـ انّ دستوريّة الاشتراكيّة هي التي تحافظ عليها وتحميها من التّلاعب ، فالدّستوريّة قبل الاشتراكيّة ،هذا هو الشّعار الجديد .

لقد انتهت "الاشتراكيّة" التي حاول التكنوقراطيّون الاصلاحيّون الشباب ادخالها الى النّظام الرّأسمالي المتخلّف ، والى الحزب الدّستوري ..

وعاد كلّ شيء ، مع بعض الآثار والبصمات للتّجربة الاصلاحيّة ، الى أصله : الدّستوريّة والحزب الدّستوري .. أي الى سلطة البورجوازيّة التّونسيّة التّقليديّة

ولكنّ السّلطة السّياسيّة تعاني الآن أزمة تصحيح "الانحراف الاصلاحي" من ناحية ، وتعاني أزمة مرض بورقيبة من ناحية أخرى وعدم قدرته على تحمّل مسؤولياته كرئيس للجمهوريّة ، بالرّغم من اعلانه الرّسمي بأنّه قادر في آخر خطاب له ..

هل يستطيع الباهي الأدغم الذي تدعمه أمريكا أن يكون خليفة بورقيبة ، وهو المعروف عنه شخصيّته الضّعيفة ، وعدم قدرته على الحسم و التّقرير ؟؟

أم يجد الأمريكيّون مخرجا آخر بانقلاب عسكري يمتصّ بعض النّقمة الشّعبيّة ؟؟

أم يحدث انقلاب عسكري للضّباط البورجوازيّين الصّغار يحقّق المهمّات التي عجز عنها التّكنوقراطيّون المدنيّون ، فيعيد بن صالح الى الحكم ، ولكن هذه المرّة بسلطة الجيش ؟؟

كلّ هذه الاحتمالات مفتوحة بعد الرّحلة الفاشلة القصيرة للاشتراكيّة الدّستوريّة التي لم تدم أكثر من خمس سنوات ...

— عن جريدة "الحريّة" المؤرّخة في ١٩٦٩/١١/١٧

• — ملاحظة — • مساهمة منّا في تحليل الأوضاع الرّاهنة في تونس ننقل هاته الدّراسة المهمّة الصّادرة بجريدة "الحريّة" آملين أن نتيح هكذا فرصا للمناقشة و المجادلة حول التّجربة الدّستوريّة ، وأن نلقي بعض الأضواء على التّطوّرات السّياسيّة في تونس كي ننير الطّريق للطّبقة العاملة ونسلّحها بنظريّة اشتراكيّة علميّة صحيحة .

الطّليعة العمّالية التّونسيّة